الفصل السادس عشر

الوحدة

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القيامة].

لما كانت العلاقة مع الله سبحانه وتعالى هي الأساس الصحيح الوحيد للسعادة في الدنيا والآخرة، وجب إذن علينا أن نتحرى إذا كانت قلوبنا تعي هذه الحقيقة وتعمل بناء عليها، أم أنه ما زال ينقصها التوجه المبدئي في الاتجاه السوي. ولا شك أن الرجوع إلى النفس سوف يكشف السلبيات التي نحتاج إلى إصلاحها حتى يستقيم أمرنا مع بارئنا ونعود إليه بقلب سليم.

وداوني بالتي كانت هي الداء

لا شك أن الوحدة كنتيجة وغرض مستهدف لابد وأن يكون لها مسبقات واستعدادات تمهد لها الطريق الشاق والطويل. ولذلك فمن الطبيعي أن نعرض مجهودات صلاح الدين للوصول إلى الوحدة المنشودة. ولقد عانى ذلك القائد المسلم في سبيل ذلك أشد المعاناة. وعلى سبيل المثال، لم يستطع سلطان مصر والشام حتى سنة ٥٧٩ هجرية أن يضم إمارة الموصل إلى الوحدة الإسلامية. وكانت فكرة رفض الوحدة قد تملكت تماما من رأس سيف الدين غازي أمير تلك المنطقة حتى أنه رفض إمداد يد العون لصلاح الدين في مواجهة الصليبيين. وبناء عليه، عقد صلاح الدين معاهدة عدم اعتداء نهائية مع بلدوين الرابع أمير بيت المقدس. وجاءت المعاهدة الأخيرة خلفا للأولى التي خرقها أرناط أمير قلعة الكرك. وفى

الحقيقة، كان بلدوين الرابع رافضا لأفعال أرناط المشينة، ولكنه في نفس الوقت لم يشأ أن يخسر دعم أرضه الحربي حتى لا يظهر ضعفه أمام صلاح الدين الأيوبي.

ومات بلدوين الرابع بعد أن عانى طويلا من مرض الجزام. وتولى الإمارة بعده ابنه بلدوين الخامس وكان طفلا في السابعة من عمره. وبالتالي بدأت الخلافات على القيادة، هل سيتولاها ريموند أمير طرابلس أوجابلوس جان أمير بيت المقدس. وكان كل ذلك في صالح المسلمين، فسبحان الله الذي قدر الأمور على ذلك الوضع! وبالفعل، استفاد صلاح الدين الأيوبي من تلك الخلافات في إحداث المزيد من الشقاق بين الأمراء الصليبيين بعضهم والبعض الآخر، فعقد معاهدة مع ريموند تسمح لصلاح الدين بمهاجمة إمارة بيت المقدس أو أنطاكيا بالمرور على أرض طرابلس. وكأن صلاح الدين أراد أن يسقيهم من الكأس التي جرعوه إياها من قبل عندما كانوا يتعاهدون مع بعض الأمراء المسلمين ضد أمراء مسلمين آخرين.

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [يوسف:٩٢].

ولم يكن صلاح الدين ليرضى بأقل من الوحدة الإسلامية الشاملة، ولذلك أسرع بالدعوة لعقد أول مؤتمر للوحدة الإسلامية لبحث كافة أحوال الأمة. وحضرت بالفعل الوفود من مشارق الأرض ومغاربها لحضور ذلك المؤتمر الذي كان يهدف إلى نبذ الخلاف وإقامة الوحدة الشاملة من أجل الإقبال على المعركة الفاصلة التي يتم فيها استرداد بيت المقدس. ولكن كان لسيف الدين غازي أمير الموصل رأي آخر، إذ أنه لم يحضر ذلك المؤتمر واكتفى بإرسال من يمثله. ومما زاد الطينة بلة أن مبعوث سيف الدين غازي أساء الأدب تجاه صلاح الدين الأيوبي، وانفض المؤتمر دون انضمام الموصل إلى الوحدة القائمة بين الإمارات الأخرى.

وفى عام ٥٨١ هجرية ، أي بعد مضى عامين من انقضاء المؤتمر الإسلامي ورفض سيف الدين غازي الانضمام للوحدة الإسلامية، مرض صلاح الدين مرضا شديدا واحتار الأطباء في تشخيصه وعلاجه حتى إن الأخبار وصلت إلى الموصل ودمشق وحمص وحماة والقاهرة أن صلاح السلطان على مشارف الموت وأن الأطباء عجزوا عن علاج حالته. ولأن الله سبحانه وتعالى هو وحده عالم الغيب والشهادة، اعتقد الجميع أن اللحظات الباقية في عمر صلاح الدين أصبحت معدودة. وبناء على هذا التصور الإنساني القاصر، أخذ المحيطون بسيف الدين غازي ينصحونه بالانصياع تحت لواء صلاح الدين الأيوبي قبل وفاته، حتى إذا حضرته الوفاة حل سيف الدين محله سلطانا وحاكما واحدا كما كان حال صلاح الدين. وبالفعل، فإن أول لقاء جمع بين صلاح الدين وسيف الدين بعد سنين طويلة كان في خيمة الأول وهو محاط بالأطباء اليائسين من علاجه. ولم يقدم صلاح الدين على معاتبة سيف الدين على أي من أفعاله المستنكرة ولا حتى على موت أخي صلاح الدين على أطراف حلب بسيف من سيوف جيش سيف الدين غازي. وكان موقف صلاح الدين في عدم إلقاء اللوم على سيف الدين نابعا من حديث الرسول ﷺ: "إذا جاءك أخوك متنصلا فلا تراجعه". وأبرمت معاهدة بين صلاح الدين وسيف الدين، قام على أثرها سيف الدين بإخضاع قوات الموصل تحت إمرة السلطان والتعهد بإرسال المزيد من الإمدادات لصلاح الدين.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾[الأنبياء:٩٢].

ويشاء السميع العليم أن يشفى صلاح الدين الأيوبي من مرضه بعد أيام قليلة من الاتفاق الذي وقعه معه سيف الدين غازي والذي يقضى بانضمام الموصل للوحدة الإسلامية تحت إمرة السلطان صلاح الدين الأيوبي!

وبذلك أصبحت القوى الإسلامية كلها موحدة وموجهة للمعركة الفاصلة التي ينتظرها العالم بأسره منذ أكثر من واحد وتسعين عاما. وكان يقين صلاح الدين على الانتصار يقينا راسخا ومستمرا وأصبحت المسألة بالنسبة له مسألة وقت لا غير. ولكن هذا اليقين جاء بعد أن تخلص صلاح الدين من أسباب الانهيار وعلى رأسها التفكك، فجاءت الوحدة لتضيء طريق اليقين على الانتصار. وبالفعل، فإذا نظرنا إلى الخمسين عاما الماضية نجد أن الانتصار الوحيد على أعداء الإسلام لم يتحقق إلا بعد توحيد التنظيم والتنفيذ لكل من الجيشين المصري والسوري اللذان واجها العدو الصهيوني في نفس الوقت على الجبهتين. وبعدها، اجتاحت الفئة الباغية أراضى الإسلام في مناطق عديدة ومتفرقة. والغريب أن المسلمين بعيدين في وقتنا الحالي عن منهج الوحدة الذي سار عليه رسول الله ﷺ، بل أنهم نسوا قول الله تعالى:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران:١٠٣].

ونظرا للأهمية القصوى التي أولاها الإسلام للوحدة، لم يترك رسول الله ﷺ مناسبة إلا ونبه فيها على ضرورة التوحد. فلننظر كيف يصف النبي الكريم علاقة المسلم بأخيه المسلم عندما قال: **"مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى"**. ولنتأمل كيف ينبذ الإسلام البعد عن الجماعة من خلال قول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: **"من لم يهتم بأمر من أمور المسلمين فليس منهم"**.

وإذا أردنا أن يرتفع شأننا بين الأمم، وأن نسترجع حقوقنا وأراضينا المغتصبة، فلا بد أن نراجع علاقاتنا مع إخوتنا في الإسلام لنحدد إذا كانت تسير على النهج السليم أم أنها تحتاج إلى تقويم.

"إذا عز أخوك فهن"[1]

وإذا كان البعض يشير إلى تعدد المذاهب على أنه خلاف في الدين، فالأمر ليس كذلك بالمرة لأن أئمة المذاهب الأربعة أثبتوا كافة أركان الإسلام وقواعده، وإنما كان لبعضهم الآراء الفقهية المختلفة التي تؤدى في النهاية إلى توسيع المدارك. والدليل على ذلك أن الإمام أبا حنيفة يقول :"إن رأيي فيما أرى هو صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيري خطأ يحتمل الصواب". وتعد تلك المقولة دعوة لسعة الصدر والاستعداد لقبول الرأي الآخر. وعلى سبيل المثال، لم يكن الإمام الشافعي مواظبا على سنة القنوت في الصلاة، وإنما كان يؤديها أحيانا فقط، اتباعا لحرص رسول الله ﷺ على عدم وقوع العامة في خلط الفرض بالنفل. ومثال آخر ضربه الإمام أحمد بن حنبل إذ أنه كان يرى وجوب إعادة الوضوء إذا خرج قدر معين من الدم من جسم الإنسان. وذات يوم، كان الإمام يقوم بزيارة لشخص يتبع مذهبا آخرا يبيح الصلاة في حالة الحجامة دون إعادة الوضوء، فلما أثير هذا الموضوع اتبع الإمام ابن حنبل الرأي الآخر وقال: "مالي لا أقتضى بمالك وسعيد بن المسيب؟!".

وهكذا يتضح أن هؤلاء الأشخاص كانت لديهم سعة صدر أتاحت لهم تقبل الرأي الآخر. وما لنا لا نحاكيهم في التمسك بالأصول، والتغاضي في الفروع طالما يكون ذلك في إطار الشرعية؟ والمتأمل في حال أمتنا في وقتنا الحالي يجد أنها تستنزف في ثرواتها الطبيعية، ويساء استغلال إمكانياتها البشرية، وللأسف نحن غارقون في الاختلافات السياسية.

وتحضرنا قصة الأب الذي وقف أمام أبنائه وبيده حزمة من الحطب جمعها سويا وطلب من كل من أبنائه أن يكسر الحزمة، فلم يستطع أي منهم فعل ذلك.

---

(١) [حديث شريف].

ولكن عندما فرق بين العيدان كان من السهل تحطيم الحطب. وهكذا الحال بالنسبة لنا!

ولقطع دابر الشيطان، يقول الرسول ﷺ للأوس والخزرج عندما عاشوا مثل هذه الفتنة: **" أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم؟ دعوها فإنها منتنة!"**. ولقد جاء الإسلام لسد الذرائع واستئصال بذور الفرقة بين المسلمين. وبالتالي ينبغي أن نتخذ هذا المبدأ منهجا لنا في علاقاتنا الشخصية على مستوى الأسرة والعمل وغيرهما حتى تجد الوحدة سبيلا لها بيننا.

ولنأخذ العبرة من إحدى سفريات رسول الله ﷺ عندما أخذ بعض الصحابة برخصة الإفطار بينما فضل البعض الآخر الصيام. وحدث ذلك دون أن يعيب أحد الفريقين على الآخر سلوكه، وذلك في حضرة النبي ﷺ. والسبب في ذلك يرجع إلى أن هؤلاء الصحابة الكرام كانت عقولهم وقلوبهم مرتبطة بالله عز وجل، وكانوا يتمسكون بالمحكم من الآيات ويتركون المتشابهات.

ومن أجل ذلك، يقول رسول الله ﷺ محدثا السيدة عائشة رضي الله عنها: "يا عائشة، لولا قومك حديث عهد بالجاهلية لهدمت الكعبة وبنيتها على حجر إسماعيل". فلنتأمل موقف النبي ﷺ الذي يميل إلى تقدير ظروف الآخرين قبل أن يقدم على إحداث تغيير، فالنبي يرى أن يكون حجر إسماعيل داخل جدران الكعبة. وبالتالي فهو يفكر في هدم الجدران الأربعة وبناء خمسة بدلا منها ليحيطوا بحجر إسماعيل، ولكنه يخشى إلا يتفهم المسلمون من أهل قريش غرضه من هذا التعديل فيتراجع عنه لمصلحة الجماعة.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم].

وإذا كان نبذ الخلاف يبدو ذو أهمية قصوى فذلك لما يتبعه من ترسيخ لوحدة المسلمين في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل. وبتطبيق ذلك على مجريات الأحداث في ذلك الوقت من عصر صلاح الدين الأيوبي نجده حريصا على ضم إمارة الموصل إلى الشام ومصر. ولكن غرضه لم يكن عسكريا بالمقام الأول، فمهما كان حجم قوات تلك الإمارة فهي لا تقارن بالقوى المتعددة التي تنتمي لجيش الشام ومصر. وإنما كان غرضه توحيد كلمة المسلمين قبل خوض معركة "حطين" حتى يقبل على هذه المعركة دون أن يكون هناك مجال للفرقة فتقع الهزيمة.

وبناء على ما سبق، فلا بد وأن يكون في ذهن المسلم أننا لن نستطيع أن نسترجع فلسطين أو العراق أو أفغانستان أو غيرها من بلاد المسلمين ونحن على هذه الحال من الفرقة. وإذا كانت أوروبا قد كونت اتحادا في منتهى القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية، فلم لا نعود إلى وحدتنا الإسلامية لاسيما إن أمتنا بها كل مقدرات الانتصار؟ فلقد حبانا الله سبحانه وتعالى بتكامل مميز، فعلى سبيل المثال لا الحصر تزخر كل من مصر وإندونيسيا وبنجالادش بالأيدي العاملة المدربة، يتوفر المال ومصادر الطاقة في شبه الجزيرة العربية. والدليل على ذلك تواجد لدينا كميات كبيرة من اليورانيوم والسليكون الذي تصنع منه الشرائح المستخدمة في الحاسب الآلي. إذن، فنحن أمة مكتملة الثروات، ولكن خلافاتنا تحول بيننا وبين الارتقاء إلى المستوى اللائق بخير أمة أخرجت للناس. ولا يخفى على أي محلل لما نحن فيه من تدهور أن يتبين السبب الرئيسي في ذلك، ألا وهو البعد عن الدين بصفة عامة وعدم الالتزام بالنصوص الإسلامية من قرآن وأحاديث شريفة. ويقول الله عز وجل في محكم آياته:

﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

وصدق الله العظيم إذ صرنا أمة بلا حول ولا قوة نتيجة للفرقة التي تمزقنا. ولذلك كان الاهتمام الأولى المشترك لكل من عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، يكمن في إتمام وحدة الأمة لتكون بمثابة السلاح الإستراتيجي الذي يضمن لنا عدم تمكن أعدائنا من اغتصاب أراضينا. والدليل على ذلك أن سقوط فلسطين ومن بعدها البوسنة والهرسك، وأفغانستان، والعراق، تحت أيدي أعدائنا كان نتيجة لغياب هذا السلاح الإستراتيجي عنا. والجدير بالذكر أن صلاح الدين لم ينجح في الوصول إلى الوحدة إلا بعد مضى سبعة عشر عاما من الكفاح والمعاناة. ولذلك، فلا ينبغي أن نفقد الشعور بكل ما بذل من جهد لتحقيق الوحدة.

العيد

وتعبر الأبيات الشعرية التالية عن أغلى الأماني ومبعث السرور للأمة الإسلامية:

ما العيد إلا أن نعود لديننا ... حتى يعود نعيمنا المسلوب

ما العيد إلا أن نكون أمة ... فيها محمد لا سواه عميد

ما العيد إلا أن يرى قرآننا ... بين الأفاضل لوائه معقود

والعيد الحقيقي يأتي علينا يوم تتوحد كل الدول الإسلامية تحت ولاية واحدة. وساعتها لن تجرؤ أية دولة أو حتى مجموعة دول على التعرض لنساء وأطفال وشيوخ المسلمين بالأذى. ولقد أدرك الغرب خطورة توحد المسلمين حتى إن أرنولد توينبى، أحد المفكرين الغربيين، رأى أن السبيل إلى الانتصار على المسلمين يتأتى من إجبارهم على تحويل دولهم إلى دول علمانية. ولذلك نرى أن الانتصار الإسلامي الذي حدث عام ١٩٧٣ لم يتحقق إلا بعد أن شاركت الدول الإسلامية

كلها في المعركة، كل منها على قدر طاقتها وبالأسلوب المتاح لها، فها هي المملكة العربية السعودية توقف ضخ البترول عن الغرب، وها هي ليبيا تفتح مطاراتها لتدريب الطائرات المصرية، وها هما الجيشان المصري والسوري ينسقان فيما بينهما ترتيبات المعركة. إذن، إذا أردنا أن نعيد بيت المقدس وأن تعود مرة أخرى الصلاة بالمسجد الأقصى فعلينا بالتحرك حتى تتحقق الوحدة فيما بيننا لتكون نقطة الانطلاق نحو النهضة وتحرير الأرض وحماية العرض. وفيما يلى أبيات شعرية نظمها فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي يحدد فيها الروح التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم حتى تعود العزة إلى أمة الإسلام:

قالوا السعادة في السكون وفى الخمول وفى الخمود
في العيش بين الأهل لا عيش المهاجر والطريد
في لقمة تأتى إليك بغير جهد جهيد
في المشي خلف الركب في دعة وفى خطووئيد
في أن تقول كما يقال ولا اعتراض ولا ردود
في أن تسير مع القطيع وأن تقاد ولا تقود
في أن تعيش كما يراد ولا تعيش كما تريد
قلت الحياة هي التحرك لا السكون ولا الهمود
وهى التفاعل والتطور لا التحجر ولا الجمود
وهى الجهاد وهل يجاهد من تعلق بالقعود
وهى الشعور بالانتصار ولا انتصار بلا جهود
وهى التلذذ بالمتاعب لا التلذذ بالرقود

هـي أن تـذود عـن الحيـاض وأي حـر لا يـذود
هـي أن تحـس أن كـأس الـذل مـن مـاء صـديد
هـي أن تعـيش خليفـة في الأرض شـأنك أن تـسود
وتقـول لا وبمـلء فيـك لكـل جبـار عنيـد
هـذه الحيـاة وشـأنها مـن عهـد آدم والجـدود
فـإذا ركنـت إلى الـسكون فلـذ بـسكان اللحـود

أو يجوز بعد كل تلك المعاني التي جاءت في الأبيات لأي منا أن يخمل؟ أم أن صلاح الدين عاش سعيدا ومات أسعد بعد أن أدى ما استطاع أن يؤديه وكلل الله العزيز الحكيم تحركه بالنصر والعزة من لدنه تبارك وتعالى. ولذلك، فالمطلوب العمل والتحرك وفقا لفكر وحدة المسلمين على جميع المستويات. إذن، فليبدأ كل منا على المستوى الفردي بنبذ الخلاف بينه وبين الآخرين أو بتخفيفه بالقدر المستطاع، مستلهما بأن الاختلاف الموضوعي يؤدى إلى إثراء الفكر. وما أطيب أن يعم فيما بيننا فكر الوحدة ونبذ الخلاف في إطار الأسرة، والمدرسة، والعمل، وأماكن اللقاء الاجتماعي، وفى المجتمع بصفة عامة، بل وبين الدول بكل تأكيد. فكم نتمنى أن يكون ما عرضناه في هذا الفصل محركاً قوياً لأي رئيس دولة مختلف في الرأي مع رئيس آخر حتى يؤدى ما بوسعه لنبذ هذا الخلاف!

***